مجلة أبحاث البصرة (العلوم الإنسانية)  المجلد٣١ ، العدد:١ ، الجزء:أ ص٦٦-٨٩

# وظيفة كاتب السر في عصر المماليك البحرية
## ( ٦٤٨ـ٧٨٤هـ / ١٢٥٠ـ١٣٨٢م )

د. نزار عزيز حبيب
جامعة البصرة / كلية التربية
قسم التاريخ

علي صالح رسن المحمداوي
جامعة البصرة / كلية التربية
قسم التاريخ

## الخلفية التاريخية لوظيفة كاتب السر

*السر* : في اللغة من الأسرار التي تكتم ، والسر ما أخفيته ، والجمع أسرار ، ورجل سرى أي يضع الأشياء سراً ، وأسر الشيء كتمه وأظهره . سررته كتمته وسررته وأعلنته والوجهان جميعاً يفسران[١] في قوله تعالى : (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون)[٢].

وقد وردت لفظة السر في القرآن الكريم في مواضع متعددة منها قوله تعالى : (وأن تجهر بالقول فأنه يعلم السر وأخفى)[٣] .

كما وردت في السنة النبوية الشريفة في مناسبات كثيرة منها قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) "... ((سر تحتها سبعون نبيا ))[٤].

وهذه الوظيفة من الوظائف المهمة في عصر المماليك يطلق على متوليها بكاتب السر لأنه يحفظ سر السلطان[٥] ويسمى بعدة تسميات أخر منها ناظر الإنشاء الشريف ، وكاتم السر ، وناظر ديوان الإنشاء ويعتبر متولي هذه الوظيفة من كبار رجالات الدولة له منزلة بمنزلة القلب واللسان من الإنسان فهو المطلع على أسرار الملك والسلطان الذي يكتب له[٦].

أما عن الخلفية التاريخية لهذه الوظيفة فقد أصبحت محال نقاش وجدل بين المؤرخين فمنهم من أرجعها إلى عصور قديمة وهذا ما أشار إليه القلقشندي عن الجاحظ وغيره قوله " من أبين فضلها ان جعلت في علية الناس .... وقد عرف ان الذين وضعوها وابتدعوها ورسموا رسومها الأنبياء عليهم السلام ... وقد ذكر علماء التاريخ ان يوسف عليه السلام كان يكتب للعزيز ، وهارون ويوشع بن نون كانا يكتبان لموسى عليه السلام ..." [٧] .

ومنهم من أرجعها إلى عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وهذا ما أشار إليه المقريزي بقوله (وكتابة السر رتبة قديمة لها أصل في السنة فقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قوله " إنها تأتيني كتب لا أحب ان يقرأها كل أحد ..." [٨] .

أما ابن تغرى بردى فقد ذكر خلاف أسلافه وأكد بأن وظيفة كاتب السر هي من الوظائف المحدثة في عصر المماليك ، وكان متحاملاً على القلقشندي القائل بقدم الوظيفة ، ولربما سائل يسأل عن موقف ابن تغري بردى تجاه القلقشندي دون المقريزي ، علماً انهما يقولان بقدم هذه الوظيفة ؟ فالإجابة على

ذلك تقول لأن ابن تغري بردى تلميذ المقريزي المهذب ، ومن باب الأدب والاحترام ان لا يرد على أستاذه بأسلوب المتحامل فقد عبر عن موقفه بطريقة غير مباشرة مع المقريزي وجعل الكلام مباشر مع القلقشندي حيث أشار في معرض حديثه عن كتاب السر في أحداث سنة (٦٧٨هـ/١٢٧٩م) بقوله " من الناس من قال ان هذه الوظيفة قديمة واستدل بقول صاحب كتاب صبح الأعشى وغيره ممن كتبوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و رد على من قال ذلك جماعة أخر قالوا ليس في ذكر من كتب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وغيره من الخلفاء دلالة على وظيفة كاتب السر وأنما هو دليل لكل كاتب كتب لملك أو سلطان فكل كاتب كتب عند رجل يقول هو أنا ذاك كاتب ... ومن قال ان هذه الوظيفة ما أحدثها إلا الملك المنصور فهو الأصح [٩] " .

كما أشار ابن تغري بردى في موضع أخر بأنه لم يقف على ترجمة رجل في الإسلام شرقاً ولاغرباً نعت بكاتب السر قبل فتح الدين محمد بن عبد الظاهر ، ويؤكد ان ما ذكره القلقشندي وغيره ممن كتبوا للنبي صلى الله عليه وآله وسلم " ولمن جاء بعده بأنهم كتاب سر بل ذلك دليل لكل كاتب كتب عن مخدومه كائن من كان[١٠] .

وفي مقالة ابن تغري بردى صدق كثير وأدلته تمتاز بعلو المقام وبمتانة عباراتها وحكمتها المعبرة ، فان كل ما سبق عصر المماليك في مجال الكتابة يقال له كاتب وظهرت هذه الوظيفة وتطورت في عصرهم فقط . ثم ان الأقلام التي تناولت موضوع كهذا تسمية الكتابة ، وليشاء فليطلع على كتاب الدكتور نزار السامرائي حيث أفرد مبحثاً خاصا سماه الكتابة[١١] .

وهذا ولا نستطيع ان نجزم بظهور هذه الوظيفة في عصر المماليك فالكثير من الوظائف لها خلفيات تاريخية وأن لم تكن بنفس الصورة مثلاً كمؤسسة الوزارة التي استحدثت في العصر العباسي لكن خلفياتها التاريخية من حيث طبيعة الوظيفة وصلاحيات صاحبها موجودة قديماً . وغير ذلك والحال ذاته بالنسبة للقضاء والحسبة وصاحب الحجاب حيث ظهرت هذه الوظائف في عصور مختلفة لكنها تطورت بشكل مختلف عما هي عليه في عصر المماليك[١٢] ، ومن الجدير ان نؤكد أنه لا توجد وظيفة من العدم بل إنها تقع ضمن التطور التاريخي بغض النظر عن التسميات ، ولكن الصلاحيات والشروط والواجبات نفسها ولابد إذن أن تأخذ بنظر الاعتبار التطور التاريخي للوظيفة من جهة ، وطبيعة المجتمع وبساطته من جهة أخرى فلكل عصر مسمياته وظروفه .

ونظراً لأهمية هذه الوظيفة حيث أولاها المماليك أهمية خاصة لأسباب ذكرها محمود سليم رزق منها حاجة المماليك الشديدة في ضبط أمور دولتهم ومكاتباتها في تحرير الرسائل السلطانية ونحوها من المكاتبات الهامة فتوسع بذلك مجال عمل كاتب السر[١٣] ، وقد فاته ان يذكر ان المماليك أتراك غرباء عن البلاد العربية ولغتها العربية لذلك هم أحوج إلى كتاب يتقنون اللغة العربية لغرض ضبط كتبهم الصادرة والإجابة على الكتب الواردة إليهم .

ويشترط فيمن يتولى هذه الوظيفة عدة شروط منها البراعة في معرفة آيات القرآن ، وأسباب نزولها ، وعلم الحديث النبوي ومعرفة كنه مدلوله ، وفهم سير الملوك الأولين في أفاعيلها وأقاويلها ، والتضلع في الحكم والأمثال بتفريعها وتأصيلها ، والتطلع على وقائع العرب بجملتها وتفاصيلها ، والتوسع في أبحر المعاني الشعرية ، فبذلك يمتلك زمام البلاغة والبراعة فإذا أمره السلطان بتحرير كتاب ما ؟ يجب ان يختار أفصح الألفاظ وأرجح معانيه ، يختصر تارة ويطنب تارة أخرى ويستعمل في كل مقام ما هو أليق ، وأن يكون أميناً على سر السلطان ولا يألوه نصحاً فيما يعلم[٢٤] .

ويتضح مما تقدم ان يكون كاتب السر عربياً مسلماً حتى يتدبر معاني القرآن والسنة وأن يكون متضلعاً ببلاغة العرب وأدبهم .

وقد ذكر ابن شاهين الظاهري شرطاً آخر ألا انه ناقشه وفنده حيث أشار إلى ذلك بقوله كاتم السر لا يكون يعرف بالتركي لئلا يطلع على بعض مقاصد الملك إذا تكلم باللفظ التركي وهذا ينافي قولنا كاتم السر فأن لم يكتم السر اذا اطلع عليه بالتركي فكيف يكتمه بالعربي اذ كان فيه إخماد فتن وأراقت دم وغير ذلك ، وما ذكرت ذلك إلا تنبيهاً على تغليط قائل هذا القول، وأما على رأيي فأنه كلما حفظ كاتم السر لساناً من الألسن كان عظمه في حقه[٢٥] .

ويتميز بعدة مميزات منها أنه أول داخل على السلطان وآخر خارج منه وكان بمثابة المستشار الأول ، ويعتبر من المقربين له أناء الليل وأطراف النهار والمطلع على أسراره ، وله ديوان خاص يجلس فيه مع بقية الكتاب يسمى ديوان الإنشاء[٢٦] مقره في قلعة الجبل[٢٧] وتحمل له وجبات الطعام من مطبخ السلطان[٢٨] وفي ذلك إشارة إلى التكريم والحفاوة التي يتمتع بها كاتب السر .

كما يلقب كاتب السر بلقب القاضي ، علماً بأنه لم يتول أي منصب قضائي حيث شاع استخدام لفظة القاضي في عصر المماليك على غير قضاة الشرع من أرباب الأقلام ، وكانت مختصة بالحاكم الشرعي وقد ابتذلت في هذا العصر حتى صارت تشمل كل أرباب الأقلام سواء كانوا من الفقهاء والمتعلمين المختصين بالشرع حتى ومن طبقة المنشئين[٢٩] .

وهذا ما أشار إليه القلقشندي بقوله " ان كتاب الزمان يطلقون لقب القاضي والألقاب المتفرعة منه كالقضائي والقاضوي على أرباب الأقلام في الجملة سواء كان صاحب اللقب متصدياً لهذه الوظيفة أو غيرها كسائر العلماء والكتاب ومن هم في معناهم وعلى ذلك عرف العامة أيضاً[٣٠] .

ومن صلاحياته ان يتولى التوقيع في دار العدل والجلوس في المظالم لقراءة شكاوى الناس وقراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها بعد أخذ موافقة السلطان عليها وتفسيرها وتصريف المراسيم الواردة والصادرة[٣١] .

وبمرور الزمن ازدادت صلاحياته حتى صار يوقع ما كان يوقع عليه الوزير مع مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى المراجعة كالتحدث في أمر البريد[٣٢] .

وكانت العادة ان يجلس كاتب السر في مرتبة أدنى من مرتبة الوزير كأنه أصبح من المتنفذين في الدولة وعلى ضوء ذلك فسر المقريزي تعاظم أمر القاضي فتح الدين فتح الله ت٦٩١هـ[٢٣] ، لأنه جلس في مرتبة أعلى من مرتبة الوزير مستنداً على ان كاتب السر منتزعاً سلطته من السلطان[٢٤] .

ويكاد يكون تعليل المقريزي غير مقبول من الناحية النظرية ، لأن الوزير هو الآخر سلطته منتزعة من سلطة السلطان ويمارس الوزارة بمرسوم سلطاني أسوة مع كاتب السر . والسبب يكمن في أن الآخر يعتبر من المقربين للسلطان ومن خواصه وله الاطلاع التام على إسراره وأي إباحة منه سوف تؤدي إلى إرباك في سياسة السلطان وليس من المستبعد ان تتكون هذه الحالة خاصة وليس عامة يمكن تفسيرها بشدة صلة الكاتب مع السلطان أو لضعف الوزير ولهذا لا يمكن ان تعمم الحالة على عصر المماليك .

وقد ازدادت صلاحياته حتى صار يتحدث في مجلس السلطان عند عقد المشورة واجتماع الحكام لفصل الأمر ، وله التوسط بين الأمراء والسلطان فيما ينتاب اليه عند الاختلاف والتدبير واليه ترجع أمر القضاة ومشايخ العلم وغيرهم[٢٥] في سائر اقاليم عصر فيمضي من أمورهم ما أحب ويشاور السلطان فيما لابد من مشاورته فيه[٢٦] .

وبعد ان يتم تعيين كاتب السر يجري تأدية القسم وهذا ما يسمى ــ باليمين الدستوري حالياً ــ وقد ذكر لنا ابن فضل الله العمري نموذجاً لذلك القسم حيث أشار إليه بقوله " وأنني مهما اطلعت عليه من مصالح مولانا السلطان ... خلد الله ملكه ونصائحه وأمر دسي ملكه ونازحه أوصله إليه وأعرضه ولا أخفيه شيئاً منه ولو كان عليّ ولا أكتمه مولانا السلطان .... من البعيد والقريب يعاود فيه ... وقت آخر فأن لم يعاود فيه بمجموع لفظه لطوله الطول المحمل عاود فيه بمعناه في الملخصات وأنه لا يجاوب فيه بأكمل ما يرى أن فيه مصلحة مولانا السلطان ... ومصلحة دولته بأسد جواب يقدر عليه ويصل اجتهاده إليه وأنه مهما أمكنه المراجعة فيه لمولانا السلطان ... راجعة فيه وعمل بنبض ما يرسم له به فيه" [٢٧] .

وبعد أن أثبتنا ظهور وتطور هذه الوظيفة وشروط وصلاحيات صاحبها من الناحية النظرية أي ما يسمى بالضابطة الكلية تدخل الآن في أيراد المصاديق ــ الشواهد ــ عن كتاب السر في عصر المماليك . ومن الجدير بالذكر ان هناك ثلاث أسر تولت مهماء هذه الوظيفة توارث أفرادها الواحد تلو الآخر ، أولها أسرة آل عبد الظاهر الجذامي المصري ، وأول أفرادها القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر الذي تولى مهام عمله سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م حيث باشر قراءة البريد وتلقي الأجوبة السلطانية[٢٨] فهو أول كاتب سر ظهرت هذه الوظيفة في عهده[٢٩] ، وجاء بعده محي الدين بن عبد الظاهر سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م[٣٠] .

وجاءت أسرة ابن الأثير الحلبي خلفاً لأسرة ابن عبد الظاهر ، وقد باشر أول أفرادها كتابة السر سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وهو القاضي تاج الدين احمد ابن الأثير التوخي الحلبي ت٦٩٩هـ/١٢٩٩م فلم

يلبث إلا شهراً واحداً[٣١] ثم جاء بعده أبنه علاء الدين ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م الذي بقي في وظيفته حتى أصيب بمرض الفالج فأقعده عن العمل[٣٢]، وبعد وفاته خلفه ابنه بدر الدين سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م إلا انه لم يطل به المقام فقد عين بدله محي الدين يحيى بن فضل الله العمري ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م[٣٣] .

ومما يتقدم يتضح شيوع ظاهرة وراثة هذا المنصب حيث وجدنا ان تولي هذا المنصب أنتقل من الجد إلى الأب إلى الابن .

وثالث هذه الأسر هي أسرة آل العمري ، وهؤلاء ينتسبون الى الخليفة عمر بن الخطاب وأولهم القاضي شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمري ت٧١٧هـ/١٣١٧م ثم توارثها محي الدين بن فضل الله ت٧٣٨هـ/١٣٣٧م و ولده شهاب الدين احمد ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م وعلاء الدين ت٧٦٩هـ/١٣٦٧م[٣٤] .

أما عن المهام التي يزاولها كتاب السر فهي كثيرة منها كتابة العهود والمواثيق والمراسيم السلطانية مثل كتابة بيعة الخلفاء والسلاطين والوصايا نذكر مصاديق منها ، ما حدث سنة ٦٥٨هـ/١٢٥٩م عندما صعد القاضي ... فخر الدين بن لقمان ت٦٩٣هـ/١٢٩٣م وقرأ تقليد الخليفة المستنصر بالله العباسي وهو من خطه وإنشائه وهذه قبسات من نسخة التقليد " الحمد لله الذي أضفى على الإسلام ملابس الشرف وأظهر بهجة درره وكانت خافية بما أستحكم عليها من الصدق وشيد ما هي من علاقة حتى أنسى ذكر من سلف ..." [٣٥] .

ومن المهام التي أنيطت بكاتب السر، هو كتابة تفويض السلاطين المماليك بالسلطنة وهذا ما حدث سنة ٦٥٩هـ/١٢٦٠م عندما عهد الخليفة المستنصر بالله العباسي إلى الملك الظاهر بيبرس بالسلطنة وكتب ولاية العهد من إنشاء القاضي محي الدين بن عبد الظاهر[٣٦] . علما بان ولاية العهد هذه أسميه لإضفاء الطابع الشرعي بدليل ان بيبرس هو الذي عمل على إحياء الخلافة العباسية في مصر[٣٧] .

وكذلك كتب محي الدين بن عبد الظاهر تفويض الملك المنصور قلاوون أمور السلطنة في مصر[٣٨] .

وفي سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م فوض الخليفة أبو العباس احمد بن الربيع سليمان الحكم إلى المنصور بن الملك الناصر فألبسه الخلعة السوداء وقلده سيفاً عربياً ، وقرئ التفويض من قبل كاتب السر علاء الدين علي بن فضل الله[٣٩] .

ومن مهام كاتب السر تدوين ولاية عهد السلاطين المماليك لأولادهم بالسلطنة من بعدهم ولدينا بعض المصاديق على ذلك ، وهذا ما حدث سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م حيث كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تفويض الملك المنصور قلاوون لولده الملك الصالح علاءالدين[٤٠]

ولما توفي الملك الصالح سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م كتب القاضي محي الدين بن عبد الظاهر تقليداً بولاية السلطنة لأبنه الملك الأشرف خليل[٤١] .

ويتضح من أحد الروايات أن ولاية عهد السلاطين لأولادهم تبقى محفوظة لدى كاتب السر، وهذا ما حدث سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م عندما آلت السلطنة للملك الأشرف خليل حيث دعا القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر فأحضره إليه[٤٢] .

كما كان كاتب السر يكتب تنازل السلطان عن السلطنة كما حدث سنة (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) عندما ترك السلطان الناصر محمد في سلطنته الثانية على مصر متوجها إلى الحج لكنه عزف عن الفكرة ودخل أمارة الكرك* . وأعلن تنازله عن السلطنة وأستدعى كاتب السر علاء الدين بن الأثير ت٧٣٠هـ/١٣٢٩م وأمره ان يكتب للأمراء بالسلام عليهم ويعرفهم انه رجع من الحج وأقام في الإمارة المذكورة[٤٣] .

ولم يقتصر عمل كاتب السر على ما تقدم ذكره بل تعداها إلى كتابة تقليد الأمراء وهذا ما حدث سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م حيث كتب القاضي فتح الدين بن محي الدين تفويض الملك المنصور بنيابة السلطنة إلى الأمير علم الدين سنجر المنصوري[٤٤] .

وكذلك كتب تقليد الأمير فخر الدين عثمان بمنصب الإمارة سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م هذا نصه " الحمد لله الذي خص والي هذه الدولة بالتقدم والفخر ورمى من عاداها بالمذلة والقهر ومد في عمر أيامها حتى يستنفذ الدهر وحتى توصف أيامها وأن قصرت بالمسار ... ولما كان المجلس السامي الأمير فخر الدين عثمان بن الأمير.."[٤٥] .

كما كان كاتب السر يكتب تقليد الوزراء وهذا ما حدث سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م حيث كتب القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري تقليد ابن زنبور[٤٦] بالوزارة ونعته بالجناب العالي[٤٧]. وأحيانا يرفض كاتب السر كتابة تقليد الوزير لأسباب هو يرتأيها تمنعه من ذلك وهذا ما حدث سنة ٧٤٥هـ/ حيث أمر السلطان الصالح ... عماد الدين إسماعيل بن الناصر بتنصيب جمال الكفاءة مشيراً للدولة وقد أمتنع القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري كاتب السر من كتابة التقليد[٤٨] هذا ولم يفصح صاحب الرواية عن الأسباب ويبدو أنه كان غير مقتنع بتوليه جمال الكفاءة ، لعدم صلاحيته مثلاً أو لأسباب لم أقف عليها .

ومن مهام كاتب السر هو ، كتابة المناشير السلطانية خاصة البشائر التي ترفع في المناسبات ، مثلما حدث سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م عندما فتحت طرابلس حيث كتب القاضي تاج الدين بن الأثير إلى صاحب اليمن يعرفه بهذا النصر[٤٩] .

**علاقة كاتب السر بالسلطة :-**

كان من المفروض ان تسود العلاقات الودية بينهما ، لغرض تدبير أمور الحكم ، لكن هذا لم يحصل بل توترت العلاقات بين الكتاب وغيرهم من كبار رجالات الدولة ، لسبب أو لآخر في حين توفرت أجواء أخرى كانت مثالاً للعلاقات الطيبة .

## وظيفة كاتب السر في عصر المماليك البحرية

وقد أجمل القلقشندي شكل العلاقة بين كاتب السر وأحد الملوك على لسان الكاتب وهو يحاور الملك حيث أشار بقوله " أصحبك على ثلاث خلال ــ قال وما هن ؟ ــ قال لا تهتك لي ستراً ، ولا تتمم لي عرضاً ، ولا تقبل في قول قائل حتى تستبرئ . فقال له الملك ــ هذه لك عندي فمالي عندك ؟ قال : لا أفشي لك سراً ، ولا أوخر عنك نصيحة ، ولا أوثر عليك أحداً ــ قال نعم الصاحب المستصحب أنت[٥٠] " .

إلا أننا لم نجد هذه الضابطة تتوفر عند كلا الطرفين من الملوك والكتاب حيث وجدنا حالات شاذة عنها مما يكون الكاتب هو ضحية العقوبة والتشريد وأحيانا الطرد الذي يلحق به من جراء التقلبات السياسية التي تحدث في السلطة والذي ينجم عنها تبديل الملوك ، وعليه يكون الكاتب لا حول ولا قول له ، واحياناً يكون الكاتب هو الطرف المسبب لجلب الأذى لنفسه عندما يدخل الهوى في نفسه فيميل إلى سلطان دون آخر ، أو يخفي تفويض السلطان لأبنه أحيانا ، كما مر بنا سابقاً ، وأحيانا يتعرض للعقوبة من جراء أمور قد تتطلب أن يقوم بأدائها من قبل السلطان المتولي للسلطة ، وعندما يخلع ويأتي غيره يحمل الكاتب ذنب ما تقدم كما حدث للقاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م عندما كتب تفويض الملك المظفر بيبرس عن الخليفة أبي الربيع سليمان ، بعد خلع الناصر محمد بن قلاوون ، وعندما عاد الأخير للحكم نكل بالكاتب وأهانه وشتمه[٥١] .

كما تعرض كاتب السر القاضي شهاب الدين احمد بن فضل الله العمري للسجن بسبب خلاف وقع له مع أحد الكتاب فرفع الأمر إلى السلطان بيبرس الجاشنكير فأمر بسجنه ولم يفرج عنه حتى سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م[٥٢] .

ولم تقتصر العقوبات الموجهة إلى كاتب السر على ما تقدم ذكره بل تعداها إلى إهانات موجهة له من جانب بعض كبار رجالات الدولة ، كما حدث سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ، حيث تعرض كاتب السر شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله إلى غضب الأمير ركن الدين بيبرس الدويدار[٥٣] الذي ضربه على رأسه نتيجة تصلب موقف الأمير[٥٤] كما عرض الأمر على المختصين للنظر فيها وكانت نتيجة أن عزل الدويدار عن وظيفته[٥٥] .

والحال ذاته مع فتح الدين بن عبد الظاهر ، عندما طلب منه أحد الوزراء ان يعرض عليه كل ما يكتب من كتب فرفض لأنه يكتب أسرار السلطان ومن باب الأمانة ان لم يطلع أحد على أسرار السلطان ، وهذا ما دعا إلى نشوب خلاف بينهما ترافعا فيه إلى السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون الذي استطاع أن يخلص صاحبه من غضب الوزير[٥٦] .

والشيء نفسه مع كاتب السر علاء الدين علي بن فضل الله ، والدويدار طيبغا الناصري عندما وقع بينهما خلاف ، سل الدويدار سيفه ليضرب كاتب السر[٥٧] مما اقتضى الأمر إلى أجراء مرافعة لدى المختصين للنظر فيها ، كان من نتيجتها ان حكم بأبعاد الدويدار من مصر إلى بلاد الشام[٥٨] ، إلا انهما تصالحا سنة (٧٤٥هـ/١٣٤٧م وأرسل كل منهم الآخر هدية[٥٩].

## أعوان كاتب السر

**أ ـ كاتب الدرج :** من الوظائف المتعلقة بكاتب السر وظيفة جليلة القدر ، عالية المنزلة ، ويعتبر متوليها من معاونيه ، وهي وظيفة كاتب الدرج ، ويسمى صاحبها بهذا الاسم لأنه يكتب الكتب على هيئة دروج والمراد بالدرج الورق المستطيل المركب من عدة أوصال وهو عبارة عن عشرين وصلاً متلاصقة(٦٠) .

ولبيان صلاحيات كاتب الدرج نذكر ما أشار إليه ابن شاهين الظاهري بقوله "..... ينسخ العهود للخلفاء والسلاطين على النهج الواضح والأسلوب المبين والتقاليد لقضاة أهل الحل والعقد بما يليق بكل منهم من براءة المطلع والختام الدالين على عظم القصد ولكفل المماليك الرفيعة ذوي الرتب العوالي والمناصب المنيفة ، وللصاحب الوزير الذي وظيفته قوام الملك في التصرف والتدبير ، وللسادة المباشرين أركان الدولة الشريفة أولي الاقلام الموضحة والأيدي العفيفة والتباشير الاقطاعات للأمراء والاجناد المؤيدين لنصرة الدين وحماية البلاد والتواضع لأرباب المناصب الموصلة كل ذي حق حقه وقاطعة من كل ظالم سببه والمراسلات والمكاتبات المشتملة على طلب الحوائج وذكر الاشواق والمعاتبات والمربعات بالارزاق والامثلة المبلغة كل راج سؤاله وامله(٦١) .

ومن المهام التي يتولاها كاتب الدرج كتابة تقاليد القضاة وتخويلهم بعض المهام الادارية كالتدريس مثلاً ، وهذا ماقام به القاضي ابن مكرم سنة ٦٤٨هـ/١٢٥٠م كتابة تقليد القاضي تقي الدين بن الشاش تدريس المدرسة المنصورية(٦٢) ، جاء فيه " الحمد لله الذي جعل ورثة الانبياء وأمرنا بالاهتداء بهداهم والاقتداء وجعل الجنة ميزاناً لعبادة الاتقياء نحمده على ماسبغ من النعماء وأثانا من الملك والاستيلاء وزادنا من البسطة في العلم والجسم وخفاية من الاصطفاء ونشهد ان لا اله الا الله وحده لاشريك له شهادة تحيل عن الارتياب وتشهد ان محمد عبده ورسوله المخصوص بالشفاعة والاسراء (صلى الله عليه وآله وسلم) ... القاضي تقي الدين أبو علي الحسن بن القاضي شرف الدين أبو الفضل عبدالرحيم بن شاش السعدي المالكي .... ان يفوض اليه التدريس بالمدرسة المالكية المنصورية على مذهب الامام مالك بن أنس...." (٦٣) .

ومن الذين تولوا هذه الوظيفة عمادالدين بن الاثير الحلبي الذي تولاها بعد وفاة والده تاج ثم تركها تديناً وتورعاً(٦٤) ، ويستفاد من هذه الرواية شيوع ظاهرة وراثة هذه الوظيفة ويؤيد هذا ماذكره ابن تغرى بردى في احداث سنة ٧٠٩هـ بأن ابن القسيراني المتوفي في هذه السنة كان هو وأبوه وجده من أعيان الموقعين(٦٥) .

وكذلك نجم الدين احمد بن العماد اسماعيل ابن الاثير ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م(٦٦) ومنهم من تولى الوظيفة منذ نعومة أظفاره واستمر فيها مثل يوسف بن محمد بن جبريل ت ٧٤١هـ/١٣٤٠م الموقع ، وصلاح الدين الذي تولى كتابة الدرج منذ صباه وكان فتح الدين بن عبدالظاهر رئيس ديوان الانشاء يعتمد عليه حيث كان مأمونا قليل الشر خيراً محتملاً الى درجة أن

قطب الدين بن المكرم يلعنه ويسبه صراحةً وكان يسخر منه بقوله ((ياعبد نحس)) لأنه أسمر اللون جداً قطط الشعر صغير الذقن ضعيف النفس وكان ملازماً لديوان الانشاء حفاظاً على راتبه ان لايقطع . ويبدو انه من ذوات السيرة الحسنة بدليل انه استمر في الخدمة مايزيد على الخمسين سنة(٦٧) ، ومنهم من سار سيرة حسنة مثل عمادالدين بن الاثير حيث قيل في مدحه :ـ

مخيلـــة اسماعيل صادقـــة الوعـــد وفتى بشروط المجد قد كان في العهد
وكان لا مـــلاك الزمان ذخـــيرة كما أدخر السيف المهند في الغمـــد
خضر بزند الاشـــرف الملك الذي يرى سيفه يوم الوغـــى وأرى الزند
فهذا صلاح الدين كاتب دستة الـــــ شريف عمادالدين وقفـــا على سعـــد
لازال يوليـــــه الخلـــل محبـــــة ولازال اسماعيل يغدى ولايغدى(٦٨)

**ب ـ الموقعون (كتاب الدست) :ـ**

ويعتبر من يتولى هذه الوظيفة من أعوان كاتب السر وأحد الموظفين الاداريين الذين يعملون في ديوان الانشاء . ويسمى بـــ " كاتب الدست " نسبة الى دست السلطان وهو مرتبة جلوسه للكتابة بين يديه وكان يطلق عليهم .. الموقعون لتوقيعهم على جانب القصص(٦٩) .

ويشترط على من يمارس هذه الوظيفة عدة شروط منها الرفق بالرعية ، والتخفيف من التشديدات التي يؤتمرون بكتابتها ، ويسوغ الامر بها . فأن كان لايقدر على التخفيف فأضعف الايمان ان لايزيد في حدة المكتوب ، والافضل ان يترك لغة التهديد والوعيد في كتابته وقد ذكر السبكي قلق أحد الكتاب ومخاوفه من السلطان في الكتابة بقوله "... فلقد بلغني ان بعض الملوك قال لموقع اكتب الى فلان بالحضور فأبرق في الكتابة وأرعد وقعقع في العبارة فلما وصل اليه الكتاب أرعده ذلك بحيث وضعت امرأته وكانت حاملاً وأرمى مصارينه من الخوف " . ولذلك قال فيهم بعض الشعراء :

قوم اذا اخذوا الاقلام من غضب ثم استمدوا بها ماء المنـــــايات
نالو بها من اعاديهم وان بعـــدوا مالا تنال بحـــــد المشرفيـــات**

ويجب ان يكتب الموقع بلغة واضحة ومفهومة لاسيما اذا كتب الى من يبعد فهمه لذلك(٧٠) .

وقد وزعت اعمال ديوان الانشاء على الكتاب كل حسب اختصاصه ، فهذا مختص في كتابة مراسلات الملوك . ومنهم من يهتم بتحرير عقود المبيعات وغيرها من الاعمال وقد امدنا الدكتورعلي ابراهيم حسن بمعلومة قيمة نقلها عن مخطوطة المقصد الرفيع المنشأ الهادي في صناعة الانشاء للخالدي والمخطوطة غير متوفرة لدينا ، حيث اشار الدكتور بقوله " وقد وزعت أعمال ديوان الانشاء على كتاب الدست فأضطلع كل منهم بعمل هام يقدم في حدود اختصاصه ..... فمن هؤلاء كاتب يقوم بتحرير المبيعات والعقود ومالياتها . ويشترط فيه ان يكون واسع الاطلاع مبتكراً للعبارات البليغة

والالفاظ الفصيحة . وهناك كاتب آخر يتولى كتابة الكتب التي ترسل الى الملوك ، ويراعي في اختياره ان يكون من فحول الشعراء جيد الخط يلمح العبارة وكاتب آخر يقوم بكتابة المراسيم ويشترط فيه ان يكون خبيراً بألقاب الملوك والامراء ومايستعمل في مخاطبتهم من صفات ونعوت ، منزهاً عن الاغراض حتى لايبخس احدا حقه أو يعطي أحداً فوق مايستحقه ومن بين كتاب الدست كاتب اشتهر بجودة الخطوط على اختلافها لأنه قل ان يجتمع الانشاء وحسن الخط في شخص واحد واختص لتحرير المنشورات الخاصة بالاقطاعات التابعة لديوان الجيش كاتب يشترط فيه ان يكون حسن الخط عارفاً بقدر كل من الامراء واولاد الملوك والسلاطين حتى يستطيع مخاطبتهم كل حسب رتبته وأهميته . أما المكتبات التي تحرر الى ملوك الفرنجة فقد كان لها من كتاب الدست كاتب خاص يتولى شؤونها ويتعين ان يكون ملماً بكثير من اللغات الأجنبية . ومن بين كتاب الدست ايضاً موظف عهد اليه بتعريب الكتب الواردة من البلاد الاجنبية وتلخيصها قبل عرضها على السلطان "(٧١) .

ويبدو من أحد الروايات ان هناك رئيس للموقعين وهذا ماأشار اليه ابن تغري بردى في احداث سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م بقوله " وفيها توفي الصاحب فخرالدين أبوالعباس ابراهيم بن لقمان الشيباني الاسودي ثم العمري رئيس للموقعين ..... وكان مشكور السيرة قليل الظلم كثير العدل والاحسان للرعية ...سعى في ابطال مظالم كثيرة ..."(٧٢) .

وقد وصف أحدهم بكثرة العبادة والتهجد الى الله تعالى فعلى سبيل المثال أبوبكر بن محمد بن مكرم قطب الدين ت ٧٥١هـ/١٣٥١م الذي مارس الانشاء مدة طويلة وكان كثير الصوم والتعبد والمجاورة بالمساجد ، وكان ذو جاه عريق لدى السلطان الناصر ، وكان صاحب ديوان الانشاء يجله ويعظمه ولايستكتبه شيئاً لقدم عهده بالكتابة(٧٣) .

ويبدو ان هناك وراثة في تولي وظيفة التوقيع وادل دليل على ذلك أسرة القيسراني ومن أشهر أفرادها اسماعيل بن محمد القيسراني ٧٣٦هـ الذي تولى توقيع الدست في مصر ، وكان صارما معظماً ديناً متواضعاً تام المروءة وافر الجلالة نزه النفس كثير الحب في الصالحين ويحفظ من كراماتهم الشيء الكثير(٧٤) ، والقاضي شمس الدين ابن القيسراني ت٧٥٢هـ صاحب المدرسة القيسرانية المنسوبة له وكان معدوداً من الرؤساء الاماثل(٧٥) وابراهيم بن عبدالرحمن بن عبدالله بن القيسراني ٧٥٣هـ/١٣٥٢م موقع الدست بالقاهرة وقد وصفه احد الشعراء بقوله :

قل لرب العلا فتى القيسراني  حيث تأتي قشة المهراني
حل عقدي بالفضل منك فاني  عاطل من قلائد العقيان(٧٦)

وشرف الدين بن القيسراني ت٧٥٣هـ/١٣٥٢م الذي باشر توقيع الدست بعد أبيه سنة ٧٣٦هـ وكان حسن الشكل تمام الخلق متوددا صبوراً على الاذى كثير التجمل في جلوسه وهيئته كلها حتى قيل عنه شرف الدين جمال الديوان وكان يكتب الرقاع قويا للغاية قال الصفدي صحبته عشرين سنة

مارأيت منه سوءاً قط وكان يتودد للصالحين ويكثر الصوم والعبادة ويصبر على الاذى ويعامل الناس بخير وطلاقة الوجه(٧٧) .

ولم تقتصر هذه الوظيفة على فئة الكتاب واولادهم بل شاركهم احد أبناء قضاة الشرع مثل صدرالدين سليمان بن محمد قاضي القضاة صدرالدين سليمان بن عبدالحق الذي تولى مهام هذه الوظيفة سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م(٧٨) .

ومن الاسر التي مارست وظيفة التوقيع اسرة ابن الفويرة ومن أبرز أفرادها علاءالدين ت ٧٥٤هـ/١٣٥٣م الذي ترقى في الخدمة وتدرج في المناصب حتى تولى منصب قاضي العسكر وأخيراً تولى منصب قاضي القضاة في مصر(٧٩) ، وعبدالله بن محمد بن الفويرة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م(٨٠) .

والحال ذاته مع تاج الدين الزفتاوي ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م الذي تولى التوقيع هو وأحد أبناءه(٨١) ، وأحمد بن الفرات الحنفي ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م الذي كان احد اعلام الموقعين وممن يعتمد عليه في الكتابة ، وبعد وفاته تولى ابنه مهام عمله بعده(٨٢) .

**النشاط الفكري لكتاب السر واعوانهم :ـ**

لقد كان لهم نصيب محدود في مجال الفكر ، ودراسة العلوم المختلفة ، وهذا يعود بطبيعة الحال الى مجال عملهم الذي يرتبط في المكاتبات الرسمية لاغيرها ، مماجعل اسهاماتهم في هذا المجال ان تكون ضيقة ، فكانت كذلك فعلاً ، هذا ولم نجزم بان لاتكون لهم اسهامات ، الا انها كانت قليلة ومحدودة تمثلت في رواية الحديث النبوي ، والشعر والتأليف ، ومن دقة القول نؤكد ان ... اسهاماتهم الشعرية كانت تفوق غيرها ، بينما اشتهر بعضهم برواية الحديث بحيث أخذوه عن شيوخه مثل فخرالدين بن لقمان الذي روى وحدث عن محمد بن عبدالوهاب بن ظافر ت ٦٤٨هـ/١٢٥٠م(٨٣) ، وابن عبدالظاهر ت ٦٩٢هـ/١٢٩٢م الذي سمع من جعفر الحمداني وعبدالله بن اسماعيل بن رمضان ويوسف بن المخيلي(٨٤) ، واحمد بن اسماعيل بن الاثير ت ٧٣٧هـ/١٣٣٦م الذي سمع من ابن الشحنة(٨٥) .

ومنهم من اخذ الحديث بالاجازة مثل يحيى بن فضل الله العدوي ت ٧٣٨هـ الذي أجاز له مكي بن علان واسماعيل بن العراقي والرشيد بن مسلمة وغيرهم وحدث شيء كثير بالاجازة(٨٦) .

وشارك كتاب الدرج في سماع الحديث واخذه من شيوخه مثل اسماعيل بن محمد بن خالد القيسراني ٧٣٦هـ/١٢٤٧م الذي سمع بن العز بن الصقل والابرقوهي وحدث باليسير(٨٧) ، ومحمد بن محمد القاضي تاج الدين الزفتاوي ت ٧٥٦هـ/١٣٥٥م الذي سمع من علي بن القيم(٨٨) واحمد بن خفر بن عبدالرحمن بن فتور الشافعي ت ٧٦٤هـ/١٣٦٢م الذي سمع من علي بن عبدالنصير الزاهد وزينب بنت سلمان الاسودي وست الوزراء وغيرهم(٨٩) ، وعبدالرحمن بن عمر البلقيني ت

٨٢٤هـ/١٤٥٩م وسمع السنن الكبرى للبيهقي وسمع مع ابيه الغالبية من كتب الصحاح الستة ، كما حصل على اجازة الحافظ أبوالعباس بن حجي وجماعة منهم ابم أميلة والصلاح بن ابن عمر والحافظ عمادالدين بن كثير والنجم احمد بن اسماعيل النقيبي واحمد بن عبدالكريم ، واخرج عنهم الحافظ ابوالفضل ابن حجر فهرساً بالكتب المشهورة فكان يحدث منها وقد اخرجت (٤٠) حديثاً عن (٤٠) شيخاً من روايته(٩٠) .

وبعد دراسة الكتاب للحديث وأخذه عن شيوخه أصبح لأحدهم تلامذة ينقلون عنه مثل ابن عبدالظاهر الذي كتب عنه البرزالي وابن سيد الناس وأثيرالدين ابوحيان(٩١) .

وفي مجال التأليف فقد كان نصيب الكتاب منه محدوداً ، إلا بعضهم مثل القاضي محي الدين بن فضل الله العمري ، الذي ألف كتاباً في صنعة الانشاء(٩٢) ، والقاضي احمد بن يحيى العمري ٧٤٩هـ/١٣٤٨م الذي وصف بأنه أمام بارع وكاتب مؤرخ نظم كثير منها تاريخه المعروف في مسالك الابصار في ممالك الامصار(٩٣) . وفواصل السمر في فضائل آل عمر في أربع مجلدات ، والدعوة المستجابة ، وصبابة المشتاق ، ومجلد في مدح النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ، ودمعة الباكي ويقظة الساهي ونفحة الروض(٩٤) .

ومما يؤسف له ان اسهاماتهم في مجال اللغة قليلة جداً وتكاد تكون معدومة لبعضهم والحال ذاته بالنسبة لبقية العلوم ، وهذا ناتج من طبيعة عملهم حيث كرسوا كل جهودهم في خدمة الانشاء . ولهذا يكون نطاق عملهم في غيره محدود جداً سوى بعضهم مثل شهاب الدين بن فضل الله العمري ت ٧٧٧هـ الذي اخذ العربية عن الشيخ كمال الدين بن قاضي شهبة ت ٧٢٦هـ/١٣٢٥م ثم عن قاضي القضاة شمس الدين محمد بن مسلم ت٧٢٦هـ/١٣٢٥م(٩٥) وشهاب الدين بن فضل الله ت٧٤٩هـ/١٣٤٨م الذي درس العربية(٩٦) وقرأها على كمال الدين بن قاضي شهبة ، ثم على قاضي القضاة شمس الدين بن مسلم وقرأ العروض على الشيخ شمس الدين بن الصائغ وعلاءالدين الوداعي وقرأ جملة من المعاني والبيان على العلامة شهاب الدين محمود ، وأخذ اللغة عن الشيخ أثيرالدين أبوحيان(٩٧).

**الشعـــــــــــــــــــر :ـ**

من المعروف ان وظيفة الكتابة تتطلب المعرفة والتضلع في علوم اللغة العربية وآدابها من وجوهها المختلفة حتى تخرج نصوص الكتابة بالشكل اللائق ، ونتيجة الخوض في أسرار اللغة العربية نظم بعض هؤلاء الكتاب نصوصاً شعرية ، مستفيدين من مواهبهم ، فالموهبة والفطرة يجعلان من الانسان شاعراً ، مخزنة من الخبرة في اللغة العربية وآدابها للأستفادة منها في صقل الاسلوب وتجويد معانيه وأخيلته .

وقد سجلت المصادر نصوصاً شعرية لهؤلاء الكتاب ، فكان القاضي فخرالدين بن لقمان ت ٦٩٣هـ/١٢٩٣م أول كاتب انشاء في عصر المماليك سبقاً في هذا المجال فقد عرف عنه بأنه ناظم ناثر مترسل . فقد تحدث في أبيات شعرية عن الواشي الذي يعد عقبة من العقبات التي تحول بين الشاعر ومن يحب وتكشف الابيات كذلك عن معاني التذلل والخضوع للمحب "راضي بما فعل الهوى المتحكم" وهذه المعاني تبدو واضحة في الرقة والعذوبة التي تتسم بها هذه الابيات غير ان هذه العذوبة والرقة تصطدم بتكلف الكاتب وهو يحاول رصف المعاني وهذا واضح من خلال قوله :ـ

لو وشى فيه من وشى ما تسليت غلمشـــــا
انا قد بحت باسمـــه يفعـل الله مـا يشـــا
كن كيف شئتا فأنني مغـــــرم راضي بما فعل الهوى المتحكم
كتمت عن الوشـــاة صبابتـي بل فالهوائج بالهوى تتكلـــم
اشتاق من الهوى وأعلم انني اشتاق من هو في الفؤاد متيـم
يامن يصد عن المحب تدلـــلا واذا بكى وجـد غدا يتبسـم
اسكنك القلب الـذي احرقتـــه فحذار من نار بـه تتضـــرم(٩٩)

وللكاتب محمد بن موسى المقدسي ت٧١٢هـ/١٣١٢م أبياتاً شعرية تحدث فيها عن مطلع غزلي وهو يعاني من جفوة الحبيب ، وقد حاول تعليل هذا الجفاء ، فأذا به يأتي بتعليل شديد التكلف حينما استعار من علم الفقه مصطلحي " الجواز والمنع " ليعلل به بخل الحبيب برشف ريقه المعسول وسبب هذا البخل هل هو شعرة الاسود ، أم طرفة الغزالي أم ثغره المتلألىء كالعقد . وقد أجمل الكاتب كل هذه المعاني بقوله :ـ

ماملـت عنـك لجفـــوة ومـــــلاك يومـاً ولا خطـــر السنوبيالـــي
عن من اخذت جواز منعي ريقك المعسول يـــاذا المعطـــف تعســـال
عن شوك الغصائم أو عن ثغرك النظـــام أو عـــن طرفـــك تغـــزال

وله أيضاً الابيات التي تحدث فيها عن ممدوح استعطفه فيها للجود فتركت أثرها منه غير ان هذا الجود تجاوز الشاعر الى غيره ، فكانت الابيات بمثابة الريح التي تحرك الغصن فتمثل به الى الآخرين وقد أجمل ذلك في هذه الابيات :ـ

حركت ساكن نفسه نحو الندى فحرمته وخطى سواي يخبره
فاذا تأملها الحبيب أصابـــها كالغصن يعظمه الشيم لغيره(١٠٠)

وللكاتب علاءالدين بن الاثير ابياتاً في المدح التقليدي ، فقد مدح أحد الامراء الذي يعرف بوفرة كرمه فكان كالبحر الذي لايعرف النفاذ وقد جسد ذلك في أبياته :ـ

ياأمير له من الجود بحـــر فهو جار لنا بغير وقوف

قد غرقنا في بحر هم وغم وطلعنا بذلك من شطنوف(١٠١)

وجاءت ابيات شرف الدين بن فضل الله العمري بعيدة كل البعد عن روح الشعر وليس له سوى الوزن والقافية ، شأنه شأن الكثير من الشعر الذي ينشد في بعض المناسبات ، فالشاعر يتحدث عن ختن احد الاطفال ، وكيف انه لم يروع من ألم الختان فهو كالمصباح يزداد ضياءً كلما القي فيه وقود ... هذا ولانعلم أي وجه من الشبه يجمع بين طفل ومصباح ، وقد مثل الشاعر هذا المعنى في أبياته:ـــ

لم يروع له الختان جفانـــــاً قد أصاب الحديد منه حديدا

مثلما تنقص المصابيح بالقسط فتزداد في الضياء وقـــوداً(١٠٢)

أما أبيات علاءالدين بن فضل الله العمري ، فقد جاءت على صيغة تقرير نثري مباشر ، يخلو من الشاعرية خال من التأثير ، فنحن نعلم بخبر ارتفاع مناسيب نهر النيل ، وكنا ننتظر من الشاعر ان يخبرنا بأثر هذا الخبر في نفسه ونفوس الآخرين الا انه أكتفى بنقل الخبر كما هو فحسب حيث أشار الى ذلك بقوله :ـــ

في يوم الاثنين ثاني الشهر من صفر نادى البشير الى ان اسمع الفلكا

ياأهل مصر نجا موســـى فليتكلـــــم طغا فرعون وهو انتشو * وهلكا(١٠٣)

وكانت أبيات عبدالله بن احمد تاج الدين الذي كتبها في مدح زميله كاتب السر علاءالدين بن الاثير كانت في غاية التكلف ، فالمجانسة بين (ابن الاثير) و (مأثر) وبين (ملأت) و (ملأ) وبين (جودك) و (الوجود) منحت الابيات برودا وتكلفاً ومبالغة غير خفية فاذا كان كاتباً مثل ابن الاثير يقيم جودة الوجود أهله فماذا سيصنع جود الآخرين من مثال الملوك والامراء والوزراء ؟ . وقد جاءت أبياته بهذا الشكل :ـــ

لك اشتهرت يابن الاثير مأثر بآثارها الحسنى ملأت بها الملأ

وجودك قد عم الوجود وأهله فما تترك من قبض فضلك خلا(١٠٤)

وقد كانت مبالغة طريفة في أبيات الشاعر شهاب الدين فضل الله العمري توحي الينا بما أستعاره في قوله " تبكي نواعيرها " ومايعكسه " بكاء النواعير " الموجود على مقربة من نهر العاصي من البهجة والسرور اللتين حلتا على هذا المكان بجلوس الشيخ صلاح الدين الصفدي حيث وصف الشاعر هذا المكان بقوله :ـــ

لقد نزلنا على العاصي بمنزلة زانت محاسن شطيه حدائقها

تبكي نواعيرها العبرى بأدمعها لكونه بعد لقياهـــا يفارقـــها(١٠٥)

## ملحـــق رقـــم (١)

### وصية كاتب السر

وليأمر عنا بما يقابل بالامتثال ، ويقابل به والسيوف لأقلامه مثل ، وينفع ملوك العد آمالاً تبلغه إلا سنة ولاتصل اليه المراكب المشرعة ( ) القلوع والخيول المطلقة الاعنة ، وليوقع عنا بماتذهب به الايام ويبقى ، ويخلد من الحسنات مانلقى اجره ويلقي ، وليمل من لديه ومن غرر الانشاء مايطرز كل تقليد وتلقي اليه المقاليد من المهمات مايحجب دونه الرماح وتحجم عن مجاراة خيل البريدية الرياح وليتلق مايرد الينا من اخبار على اتساع اطرافها وماتضمه منها ملاءة النهار مل اطرافها وليحسن لدينا عرضها وليؤد بأدائها واجب الخدمة ويتم فرضها ، وليجب عنا بما استخرج فيه مراسمنا المطاعة ، وبما وكل الى راية فسمح له الصواب واطاعه ، وليمض مايصدر عنا مما يجوب الافاق ويزكو عن الانفاق ، ويجول مابين مصر والعراق ويطير به الحمام الرسائلي وتجري الخيل العتاق .

وليرد النواب مآبهم عليهم بما يريهم من ضوء آرائهم وليؤكد عندهم اسباب الولاء بمايوالي اليهم من عميم آلائنا وليأمر الولاة بمايقف به كل منهم عند حده ولايتجاوزه في عمله ، ولايقف بعده على سواه بأمله ، وليتول (تجهيز البريد) ، واستطلاع خبر كل بعيد وقريب ، والنجابة وماتسير فيه من المصالح ، ويأخذ منه (بأطراف الاحاديث اذا سألت (منه) باعناق المطي الاباطح) ، وأمور النضحاء والقصاد ومن (يظل سرهم عنده الى صخهرة اعيي الرجال انصداعها وهم شتى في البلاد) ، وليعرف حقوق ذوي الخدمة منهم ، وأهل النصيحة الذين رضي الله عنهم ، ولاينسى عوائدهم من رسوم احساننا الموظف ، وكرمنا الذي تستميل به القلوب ويتألف وليصن السر بجهده وهيهات ان يتخفى ، وليحجبه حتى عن مسمعيه (فسر الثلاثة غير الخفي) ، والكشافة الذين هم ربيئة النظر ، وجلابة كل خبر ، ومن هم اسرع طروقاً من الطيف ، والداخل في نحور الاعداء من ذباب السيف ، وهم اهل الرباط للخيل ، ومامنهم الا من هو مقبل ومدبر كالليل ، كالذياب والنظرة ، ومن يعلم به العلم اليقين اذا رفع دخانه أو ناره ، وهم في جنبات الطريق حيث لايخفى لأحد منهم منار ، ولايزال كل نبأ بتنويرهم (كأنه جبل في رأسه نار) .

والحمام الرسائلي ومايحمل من بطائق ويتحمل من الانباء مالايس سواه له بطائق . ويخوض من قطع السحايب الانهار ، ويقطع الينا باخبار مابعد مسافة شهر واكثر منه في ساعة من نهار ، ويعزم السرى لايلوى على الرباع ، ويعلم انها ملائكة الطير لأنها (رسل ولها اجنحة مثنى وثلاث ورباع) وغير هذا مما هو به معذوق واليه تحي به النوق ، من رسل الملوك الواردة ، وطوائف المستأمنين الوافدة ، وكل هؤلاء مالهم المترجم والمصرح عن لسان المجمجم . فليعاملهم بالكرامة ، وليوسع لهم من راتب المضيف مايحبب اليهم به في ابوابنا العالية الاقامة .

وليعلم انه هو لدينا (المستشار المؤتمن) . والسفير الذي كل احد بسفارته مرتهن . وهو اذا كتب بناننا واذا نطق لساننا . واذا خاطب ملكا بعيدالمدى عنواننا . واذا سدد رأيه في نحور الاعداء سهمنا المرسل وسنانا فليتزل نفسه مكانتها ، وليتظر لدينا رتبته العلية اذا رأى مثل النجوم عيانها ، فيراقب الله تعالى في هذه الرتبة ، وليتوق لديته فان الله تعالى لايضيع عنده مثقال حبة ، وليخفف سوء الحساب وليتق الله ربه .

وجماعة الكتاب بديوان الانشاء بالممالك الاسلامية هم على رعيته . وهداهم بما تمدهم به من الألاء المعيتة فلايستكتب منهم الا من لايجد عليه عاتباً ولايجد الا اذا اقعده بين يديه كاتباً.

والوصايا منه تستملى ، ومن صدور تقاليده تستجلى ، فما حاجة الى الاطناب . ولا الى شيء اذا ذكره الذاكرة كان عنه قد ناب ، وسبيل كل واقف عليه من اهل هذه الطائفة ، ومن يجري مجراهم امتثال امره فانه انما يأمر عنا . والقاء السمع اليه فانه انما ينتقي منا .

وليكن لديه الواح البريد المنصور ومن عنده تفريقها ، وبيده تؤخذ كل العلائم الشريفة ولاينكب عنه طريقها ، وله تعيين من يجهز في كل منهج ، والمشاورة على كل مابهم . فمن تعدى عليه ، تصدى لسهام اللوم الراشقة اليه ...

## الهوامـــــــــش

١ ــ ابن منظور : لسان العرب ٢/١٤٠ .

٢ ــ يونس / ٥٤ .

٣ ــ نوح ٩ ، وينظر محمد/٢٦ ، طه/٧ ، الفرقان/٦ ، البقرة/٢٣٥ ، ٢٧٤ .

٤ ــ الامام مالك : الموطأ باب الحج ٤٩م ، وينظر مسلم : الصحيح الاستقاء/١٤ ، احمد ابن حنبل : المسند ٤/١٣٠ ، وللمزيد مراجعة المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي٢/٤٤٤ ومابعدها .

٥ ــ المقريزي : الخطط ٢/٢٢٥ .

٦ ــ ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف الممالك/١٩٨ .

٧ ــ صبح الاعشى ٣٩/١ .

٨ ــ الخطط ٢/٢٢٥ .

٩ ــ النجوم ٧/٢٩٣ .

١٠ــ النجوم ٧/٣٣٤ .

١١ــ تاريخ الفكر العربي الاسلامي .

١٢ــ ينظر المحداوي : قضاة مصر/١١ ، ٤٥ ، ٤٧ .

١٣ــ عصر سلاطين المماليك ٥/٩٧ .

١٤ــ ابن شاهين الظاهري : زبدة كشف المماليك/٩٩ .

١٥ــ زبدة كشف الممالك/٩٩ ــ ١٠٠ .

١٦ــ للتفاصيل يراجع د.علي ابراهيم حسين : تاريخ المماليك البحرية .

١٧ــ وهي مقر حكومة السلطان المملوكي . لمزيد من التفاصيل ينظر المقريزي : الخطط٢/٢٠٠ .

١٨ــ المقريزي : الخطط٢/٢٢٥ .

١٩ــ حبيب زيات : لقب القاضي (مجلة المشرق ، العدد ٣٦ ، السنة١٩٣٨) ٥٧٠ .

٢٠ــ صبح الاعشى ٥/٤٥١ .

٢١ــ القلقشندي : صبح الاعشى٤/٣٠ ، المقريزي : الخطط٢/٢٢٥ ، السيوطي : حسن المحاضرة ٢/١٣٢ .

٢٢ــ المقريزي : الخطط٢/٢٢٥ .

٢٣ــ فتح الدين محمد بن القاضي محي الدين عبدالله بن الشيخ رشيد الدين عبدالظاهر بن نشوان بن عبدالظاهر الجذامي المصري صاحب ديوان الانشاء ولد في مصر سنة (٦٣٨هـ/م) ، ابن الفرات : تاريخ٨/١٤٤ ، ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ٨/٣٥.

٢٤ــ الخطط ٢/٢٢٦ .

٢٥ــ لقد توسعت صلاحيات كاتب السر حتى صار يكتب وصايا تماثر أرباب الدولة حدد فيها صلاحياتهم للتفاصيل ، ينظر ابن فضل الله العمري : التعريف بالمصطلح الشريف .

٢٦ــ المقريزي : الخطط٢/٢٢٥ .

٢٧ــ التعريف /٢١٤ .

٢٨ــ ابن عبدالظاهر : تشريف الايام ٥٦/١ ، ابن تغري بردى : النجوم٣٣٨/٧ .

٢٩ــ ابن تغري بردى : النجوم٣٣٣/٧ .

٣٠ــ المقريزي : السلوك ط ق ٦٨٤/٣ ، ابن الفرات : تاريخ ١٦٢/٨ .

٣١ــ ابن الفرات : تاريخ ١٤٤/٨ .

٣٢ــ ابن تغري بردى : النجوم ٣٢٩/٧ .

٣٣ــ المقريزي : السلوك ط ق ٣٣٩/١ .

٣٤ــ ابن تغري بردى : النجوم٣٣٩/٧ .

٣٥ــ ابن تغري بردى : النجوم١١١/٧ .

٣٦ــ ينظر ابن عبدالظاهر : الروض الزاهر/٩٩ ، القلقشندي : صبح الاعشى٢٧٥/٣ ، المقريزي : السلوك ط ق ٤٤٩/٢ .

٣٧ــ للتفاصيل راجع الحمداوي علاقة قضاة المماليك بالسلطة الحاكمة في مصر في عصر المماليك البحرية (مقبول للنشر) مجلة ابحاث البصرة .

٣٨ــ السيوطي : حسن المحاضرة ١٠٦/٢ .

٣٩ــ القلقشندي : صبح الاعشى ٢٧٦/٣ ، المقريزي : السلوك ج٢ ق٥٥٨/٣ ، ابن تغري بردى : النجوم ٥/١٠ .

٤٠ــ ابن عبدالظاهر : تشريف الايام /٥٤ .

٤١ــ ابن عبدالظاهر : تشريف الايام /٢٩ .

٤٢ــ القلقشندي : صبح الاعشى/٢٦ ، ابن تغري بردى : النجوم٨٠/٣ ، السيوطي : حسن المحاضرة/٢٦ .

٤٣ــ ابن تغري بردى : النجوم ١٧٩/٨ .

٤٤ــ ابن عبدالظاهر : تشريف الايام/٤٥ .

٤٥ــ ابن الفرات : تاريخ ١٧٨/٧ .

٤٦ــ عبدالله بن احمد بن زنبور ، علم الدين بن القاضي تاج الدين تدرج في الخدمة حتى وصل الى مرتبة الوزارة للتفاصيل راجع ابن حجر : الدرر ٣٠٥/٢ .

٤٧ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٢٨٩/٣ ، ابن تغري بردى : النجوم٢٢٥/١ .

٤٨ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٦٦٣/٣ .

٤٩ــ للتفاصيل ينظر نص الكتاب في ابن تغري بردى : النجوم٧/٣٢٢ .

٥٠ــ صبح الاعشى ١٢٩/١ .

٥١ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق١/٧٣ ، ابن تغري بردى : النجوم ٨٩/٩ .

٥٢ــ للتفاصيل راجع المقريزي : السلوك ج٢ ق٢/٤٨٧ .

٥٣ــ بيبرس المنصوري الخطائي الدويدار كان من مماليك الملك المنصور ، تنقل في الخدمة حتى تأمر وولاه المنصور نيابة الكرك ثم صرفه الاشرف خليل ثم عينه دويدار كبيرا فاستمر بقية دولة الاشرف . ابن حجر / الدرر ٤٣/٢ .

٥٤ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق١/٨ .

٥٥ــ ابن حجر الدرر ٤٣/٢ .

٥٦ــ ابن تغري بردى : النجوم ٣٣٤/٧ .

٥٧ــ طيشبغا الدويدار الناصري كان اولاً جمدارا عند انوك بن الناصر ، وكان أنوك مغرماً به ثم تولى منصب الدويدارية في أول دولة الناصر ، ابن حجر : الدرر ٣١٩/٢ .

٥٨ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٢/٧٧١ ، ابن حجر : الدرر ٣٣١/٢ .

٥٩ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٣/٨٢٥ ، ابن تغري بردى : النجوم ١٢٢/١٠ .

٦٠ــ القلقشندي : صبح الاعشى /١٣٨١ .

٦١ــ زبدة كشف الممالك/١٠٠ .

٦٢ــ وهي المدرسة التي أنشأها الملك المنصور قلاوون الالفي يدرس فيها مختلف العلوم ، المقريزي : الخطط٢/٣٧٩ .

٦٣ــ ابن الفرات : تاريخ ٢٧/٨ .

٦٤ــ الصفدي : الوافي ٩٠/٩ .

٦٥ــ النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨ .

٦٦ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٢/٤٢٧ .

٦٧ــ ابن حجر : الدرر ٢٤٦/٥ .

٦٨ــ الصفدي : الوافي ٩٠/٩ .

٦٩ــ القلقشندي : صبح الاعشى ١٣٧/١ .

(*) هي السيوف التي تجلب من مشارق الشام ، السبكي/معيد النعم/٣١ .

٧٠ــ معيد النعم /٣١ .

٧١ــ تاريخ المماليك /٣١٤ .

٧٢ــ النجوم الزاهرة /٥٠/٨ .

٧٣ــ ابن حجر : الدرر ٤٩٨/١ .

٧٤ــ ابن حجر : الدرر ٤٠٤/١ .

٧٥ــ ابن تغري بردى : النجوم ٢٥٢/١٠ .

٧٦ــ ابن حجر : الدرر ٣٨/١ .

٧٧ــ ابن حجر : الدرر ١٨٩/٥ .

٧٨ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٨٦٥/٢ ، ابن حجر : الدرر ٢٤٤/٢ .

٧٩ــ ابن تغري بردى : النجوم ٢٩١/١٠ .

٨٠ــ ابن حجر : الدرر ٤١٠/٢ .

٨١ــ ابن حجر : الدرر ٣١٥/٤ .

٨٢ــ ابن حجر : الدرر ١٣١/١ .

٨٣ــ ابن تغري بردى : النجوم ٥١/٨ .

٨٤ــ ابن شاكر الكتبي : الفوات ١٧٩/٢ .

٨٥ــ ابن حجر : الدرر ١١١/١ .

٨٦ــ ابن حجر : الدرر ٥/ ١٩٩ .

٨٧ــ ابن حجر : الدرر ٤٠٤/١ .

٨٨ــ ابن حجر : الدرر ٣٥١/٤ .

٨٩ــ ابن حجر : الدرر ١٣٨/١ .

٩٠ــ التقي الغزي : لحظ الألحاظ : ٢٨٢ .

٩١ــ ابن شاكر الكتبي : فوات ١٧٩/٢ .

٩٢ــ ابن اياس : تاريخ ١٧٣/١ .

٩٣ــ مطبوع .

٩٤ــ ابن شاكر الكتبي : فوات ١٦٠/١ ، ابن حجر : الدرر ٣٥٢/٩١ ، ابن تغري بردى : النجوم ١٥٢/١ .

٩٥ــ ابن تغري بردى : النجوم ١٣٧/١١ .

٩٦ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق٧٩٢/٣ .

٩٧ــ ابن حجر : الدرر ٣٥٢/١ .

٩٨ــ ابن شاكر الكتبي : فوات ١٥٩/١ .

٩٩ــ ابن شاكر الكتبي : فوات ٤٤/١ ، ابن تغري بردى : النجوم ٥١/٨ .

١٠٠ــ ابن حجر : الدرر ٣٩/٥ .

١٠١ــ ابن حجر : الدرر ١٨٤/٣ .

١٠٢ــ ابن حجر : الدرر ٤٢/٣ . ابن تغري بردى : النجوم ٩٦/١٠ .

(**) عبدالوهاب بن فضل الله الكاتب شرف الدين النشو خدم أولاً مع أبيه عند بكتمر ثم عند ايدغمش . وتوفي سنة ٧٤٠هـ/١٣٣٩م ينظر ترجمته في ابن حجر : الدرر ٣/٤٢ .

١٠٣ــ المقريزي : السلوك ج٢ ق١/٤٨٠ .

١٠٤ــ ابن حجر : الدرر ٢/٣٥١ .

١٠٥ــ ابن تغري بردى : النجوم ١٠/٢٣٥ .

١٠٦ــ ابن حجر : الدرر ٤/٣١٦ .

## المصـــــادر والمراجـــــع


١ــ ابن اياس ، محمد بن احمد الحنفي ، ت ٩٣٠هـ/١٥٢٤م .

تاريخ مصر (المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور بولاق ، ١٣١١)) .

٢ــ ابن تغري بردى ، جمال الدين ت ٧٨٤هـ/١٤٤٩م .

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (المؤسسة المصرية د.ت) .

٣ــ التقي الغزي ، تقي الدين أبو الفضل محمد ت ٨٧١هـ/١٤٦٦م ز

لحظ الالحاظ بذيل طبقات الحفاظ ، مطبوع مع ذيل تذكرة الحفاظ للذهبي ، دمشق ، ١٣٤٨ .

٤ــ ابن حجر العسقلاني ، احمد ابن علي ت ٨٥٢هـ/١٤٤٨م .

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (تح محمد سيد ، ط٢ مصر ــ ١٩٦٦ ) .

٥ــ حسن ، د . علي ابراهيم .

تاريخ المماليك البحرية (ط٣ ، القاهرة ــ ١٩٦٧ ) .

٦ــ رزق ، محمود سليم .

عصر السلاطين المماليك ونتاجهم العلمي والادبي (ط٢ ، المطبعة النموذجية ، ١٩٦٧)

٧ــ زيدان ، جرجي .

لقب القاضي ، مجلة المشرق ، العدد ٣٦ ، السنة ١٩٣٨ .

٨ــ السامرائي ، د.نزار .

تاريخ الفكر العربي الاسلامي .

٩ــ السبكي ، عبدالوهاب بن علي ت ٧٧١هـ/١٣٦٩م .

طبقات الشافعية الكبرى (تح عبدالوهاب محمد وأخر ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٦٤).

١٠ــ السيوطي ، جلال الدين ت ٩١١هـ/١٥٠٥م .

حسن المحاضرة في ملوك مصر والقاهرة (تح محمد أبو الفضل ط١ ، دار احياء الكتاب ، ١٩٦٨) .

١١ــ ابن شاكر الكتبي ، محمد ت ٧٦٤هـ/١٣٦٤م .

عيون التواريخ (تح نبيلة عبدالمنعم وأخر ، بغداد ، ١٩٨٤) .

١٢ــ ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ت ٨٧١هـ/١٤٦٧م .

زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك (تح بونس راوس ، باريس ، ١٨٨٤) .

١٣ــ الصفدي ، صلاح الدين خليل ت ٧٦٤هـ/١٣٦٣م .

الوافي بالوفيات باعتناء مجموعة مستشرقين بيروت ــ دمشق) .

١٤ــ ابن عبدالظاهر ، محي الدين ت ٦٨٩هـ/١٢٩٠م .

تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور (تح مراد كامل وأخر ، الجمهورية العربية المتحدة ، د.ت ) .

١٥ــ ابن الفرات ، ناصر الدين محمد ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م .

تاريخ ابن الفرات ، ج٧ (تح قسطنطين زريق ، بيروت ــ ١٩٤٢) ج٨ (تح قسطنطين زريق وأخر ، بيروت ، ١٩٣٩) .

١٦ــ ابن فضل الله العمري ، احمد ابن يحيى ت ٧٤٩هـ/١٣٤٩م .

التعريف بالمصطلح الشريف (تح سمير الدروبي ، ط١ ، الاردن ــ ١٩٩٢).

١٧ــ القلقشندي ، احمد بن علي ت ٨٢١هـ/١٤١٨م .

صبح الاعشى في صناعة الانشا (القاهرة ــ د.ت) .

١٨ــ المحمداوي ، علي صالح .

قضاة مصر ودورهم في الحياة الاجتماعية والفكرية في عصر المماليك البحرية (٦٤٨ــ٧٨٤هـ) رسالة ماجستير غيرمنشورة (جامعة البصرة ــ كلية التربية ــ ٢٠٠١) .

١٩ــ مسلم ، ابي الحسن القشيري .

الجامع الصحيح (بيروت ، د.ت) .

٢٠ــ المقريزي ، احمد بن علي ت ٨٤٥هـ/١٤٤٢م .

الخطط المقريزي (بولاق ــ ١٢٩٤م) .

السلوك لمعرفة دول الملوك (القاهرة ــ ١٩٧٣) .

٢١ــ ابن منظور ، محمد بن مكرم ت ٧١١هـ/١٣١١م .

لسان العرب (بيروت ، د.ت) .

**Abstract**

The paper deals with the notion of the (Secretary) in the language , holy Kuran , the prophet's sayings and the historical background of this position. We explained the Mamalik need to create such position. The secretary keeps the secrets of the Sultan. He is characterized with special features, and names and the words that he pronounces during his employment. Particular families occupied this position, we explained the important works that he does and his relation with the government .The secretary had assistants who are called the Secretary assistants. The paper illustrates the ideological activity of the Secretaries who had limited participations in the prophetic sayings, poetry and authority.